الخطاب الحجاجي في مقدمات ابن قتيبة
(أدب الكاتب- الشعر والشعراء- عيون الأخبار) أنموذجاً.

دكتورة/أحلام مساعد السريحي الحربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبدالعزيز- المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

تعددت أوجه التخاطب الإنساني بين ماهو شفوي وماهو مكتوب، ويعد الخطاب الحجاجي ركيزة أساسية فيهما، لكونه آلية فاعلة للوصول إلى الإقناع بالرأي المخالف والحمل على تقبله، لذا وظف ابن قتيبة الخطاب الحجاجي في مقدماته وعده وسيلة للوصول إلى المتلقي وتغيير معتقداته، وبذلك تبلور موضوع الدراسة بعنوان: الخطاب الحجاجي في مقدمات ابن قتيبة (أدب الكاتب- الشعر والشعراء- عيون الأخبار) أنموذجاً.

وتمركز الدافع في اختيار هذا الموضوع يرتبط أساساً بجانبين: الأول أن المقدمات تعد مدونة تراثية ثرية بالغة الأهمية لم تلق الاهتمام والعناية بالدراسة التي تستحقها، فدراسة الخطاب المقدماتي محدودة لحداثة المفهوم وجدته، فدراسة المقدمة أمراً جديراً بالاهتمام والعناية. وأما السبب الثاني: فيرتبط بالرغبة بقراءة الموروث التراثي قراءة جديدة تتماشى مع روح العصر والدراسات الحدثية.

تسير هذه الدراسة وفق المنهج الوصفي التحليلي، وتعد أداة لتحقيق أهم الأهداف المرجوة التالية:

- معرفة مدى وعي ابن قتيبة بأهمية الحجاج في خطابه المقدماتي
- الكشف عن سمات البنى الحجاجية.
- استقراء وسائل الإقناع المعتمدة في خطاب ابن قتيبة المقدماتي.
- الكشف عن المنطق الحجاجي لكل مقدمة.

وتشتمل هذه الدراسة على مدخل ومبحث على النحو التالي:

المدخل: ويتناول مفهوم الحجاج في الثقافتين العربية والغربية، ومدى أهمية الحجاج في مقدمات ابن قتيبة.

المبحث الأول: ويتناول الكشف عن أنواع البنى الحجاجية، التي قد تم تحديدها في المحاور التالية:

- حجج شبه منطقية.
- حجج تؤسس على بنية الواقع
- حجج تؤسس بنية الواقع.

اعتمدت هذه الدراسة على تصنيف برلمان وتيتكاه في كتابهما مصنف الحجاج: الخطابة الجديدة تصنيفا استخرجه د. عبدالله صوله في كتاب " أهم النظريات: الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم.

واجهت هذه الدراسة بعض الصعوبات، التي سنتغلب عليها مستعنين بالله وأهمها:

- توسع موضوع الحجاج، الذي من الصعوبة الإحاطة به.
- قلة المراجع العربية المتخصصة في هذا الموضوع.
- صعوبة الترجمة من اللغة الفرنسية.

وعلى آله وصحبه أجمعين.ρوأخيرا، أرجو من الله أني قد وفقت في استيفاء هذه الدراسة، وأملي أني قد أفدت واستفدت، وأسأل المولى أن يلهمني السداد في القول والعمل، وهو حسبي ونعم الوكيل، والصلاة والسلام على سدينا محمد

المدخل:

ظهر الحجاج في الثقافة الغربية والعربية على حد سواء، وورد بمسميات متعددة منها: الجدل والمناظرة، وتعددت مجالات الدراسة الحديثة للحجاج بحسب الروافد المعرفية المتعددة من علوم الفلسفة، والمنطق، والعلوم اللسانية. . .

مفهوم الحجاج:

بالكشف عن لفظ الحجاج في معاجم اللغة تطالعنا مادة(ح ج ج) عند ابن منظور بأنه: " البرهان، وقيل الحجة ما دوفع به الخصم، وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون الظفر عند الخصومة، وهو رجل محجاج أي جدل، والتحاج: التخاصم، . . والحجة: الدليل والبرهان" أما ابن فارس فقد ذكر المعنى بمعجمه بأنه: "يقال حاججت فلانا فحججت، أي غلبته بالحجة، وذلك الظفر عند الخصومة". فابن فارس و ابن منظور اتفقا في معنى الحجة بأنه البرهان والدليل الذي يتجلى في التأثير على المتلقي بهدف الإقناع.

ويتضح بأن مفهوم الحجاج عند العرب يدور حول الخصومة بين شخصيين، أو الجدل، وفي ذلك ذكر د. جميل عبدالحميد أن الحجاج في الفكر العربي والإسلامي" انحصر بين لونين خطابين، هما: خطابة الجدل، والمناظرة فيما بين زعماء الملل والنحل، وفيما بين النحاة والمناطق، وفيما بين الفلاسفة والمتكلمين، والخطابة التعليمية متمثلة في الدروس التي كان يلقيها العلماء في مختلف العلوم آنذاك".

أما مفهموم الحجاج الاصطلاحي في الدراسات الحديثة فقد تباين لتعدد العلوم المعرفية التي تداولته بالدراسة من منطق، وفلسفة، وبلاغة، وغيرها، فيرى الباحثان برلمان وتيتكاه بأن " موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة التسليم"

وفي الدراسات العربية مفهوم الحجاج كما عرفه د. طه عبدالرحمن على أنه "كل منطوق به موجه إلى الغير لافهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"، أما د. عبدالهادي فقد قال أن " الحجاج هو الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل اللغة فيها، وتتجسد عبرها إستراتيجية الإقناع" .

ويتضح من خلال تلك المفاهيم بأن الحجاج وسيلة المتكلم لجعل المتلقي يتقبل أراءه وأفكاره عبر مجموعة من الحجج فهو يهدف إلى التأثير في المتلقي، وبذلك يكون الحجاج عملية تواصلية بين المرسل والمتلقي.

ووضع د. الشهري ضوابط الخطاب الحجاجي التي يجب على المرسل الالتزام بها، ونذكر منها:

- أن يكون الحجاج ضمن إطار الثوابت، فليس كل شيء قابلاً للنقاش أو الحجاج.
- أن تكون دلالة الألفاظ محددة، والمرجع الذي يحيل عليه الخطاب محدد.
- موافقة الحجاج لما يقبله العقل.
- توفر المعارف المشتركة بين طرفي الخطاب، مما يسوغ قبول المرسل إليه لحجج المرسل، وإلا انقطع الحجاج بينهما.
- مناسبة الخطاب الحجاجي للسياق العام، لأنه هو الكفيل بتسويغ الحجج الواردة في الخطاب من عدمها.
- ضرورة خلو الحجاج من الإبهام والمغالطة والابتعاد عنهما.

أهمية الحجاج في مقدمات ابن قتيبة:

يحتاج ابن قتيبة في مقدمات كتبه لاثبات قضاياه وأهدافه التي يسعى إليها، فكان على وعي تام بأهمية الحجاج في إقناع المتلقي والتأثير عليه، لذا استند على الخطاب الحجاجي وتنوعت بنى الخطاب لديه، ليجعل خطابه يتسم بالدقة وبعد النظر، محققاً بذلك أهدافه المرجوة.

والخطاب الحجاجي تجلى عند ابن قتيبة وتنوعت أساليبه، وأدواته، لذا سيتم تناول بنية الخطاب الحجاجي بالدراسة.

أولاً: بنية الخطاب الحجاجي:

تعد البنى الحجاجية أساس بناء الخطاب الحجاجي، لأن " التخاطب يبنى على ركنين أساسين، هما التواصل والتعامل"، وعلى ذلك يجب على الباث أن يحسن اختيار حججه حسب مايقتضيه السياق، و الخطاب الحجاجي " يتمثل في جملة من الوقائع والحقائق والافتراضات والقسم والمواضع تشكل مجتمعه جملة من المقدمات الحجاجية الضرورية في كل خطاب"، و تباينت مقدمات كتب ابن قتيبة الثلاثة في الأفكار والقيم المتضمنة، لذلك تنوعت بنية الخطاب الحجاجي على حسب ماتقتضيه الفكرة، ولهذا

التنوع في الطرح سنعتمد على تصنيف برلمان وتيتكاه للبنية الحجاجية وسيتم الاقتصار بما يتناسب مع المقدمات الثلاث، ونستخلص إلى ثلاث بنى حجاجية، وهي:

- حجج شبه منطقية.
- حجج تؤسس على بنية الواقع
- حجج تؤسس بنية الواقع.

أولاً: الحجج الشبه منطقية:

تمتاز هذه الحجج بملامستها قواعد المنطق فهي " تتخذ قالبا منطقيا شكليا فيه تحشر المعطيات وتكيف فتجعلها شبيه باستدلال منطقي صارم، فما يميزيها إذن حقيقتها اللاشكلية التي تجتهد في أي أن تكون شكلية أو تعدل أو تبدل لتكون ذلك"، وتنقسم الحجج الشبه منطقية إلى قسمين:

- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية.
- الحجج شبه المنطقية التي تستند على العلاقات الرياضية.

الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية:

التناقض وعدم الاتفاق:

تستند هذه الحجج على المنطق الذي يعد جزء من البنية العقلية للإنسان، ويقصد بالتناقض " هو أن تكون هناك قضيتان في نطاق مشكلتين إحدهما نفي للآخر ونقض لها"، بينما يقصد بعدم الاتفاق "إذ يدفع الحجاج أطروحة ما بيننا أنها لاتتفق مع الأخرى"، ويتصل بهذا النوع من الحجج شكلا آخر ويسمى **قلب البرهان على صاحبه** وتنص على" اعتماد حجة الخصم واثبات أنها في حقيقة الأمر تناقض مايذهب إليه أي تقف ضده" واستند ابن قتيبة على هذين النوعين من الحجج في مقدمة (الشعر والشعراء) بنقض حجة العلماء القدماء بالاستشهاد بالقديم فيقول: " فأني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولاعيب عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله. ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا ومقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديث في عصره"

يعتمد ابن قتيبة على حجة عدم الاتفاق ليظهر خطأ مذهب العلماء السابقين لـــه في قبولهم الشعر القديم ورفضهم الشعر الحديث، ويمكن توضيح مذهبهم من خلال تلـــك الحجتين:

شعر رصين + شاعر حديث = مرفوض

شعر سخيف + شاعر قديم = مقبول

ومن خلال ذلك أراد ابن قتيبة قلب البرهان عليهم من خلال تأكيده النتيجة بأن ليس كل قديم رصين وليس كل حديث سخيف، ويمكن تمثيلها بالشكل التالي:

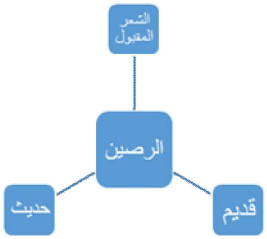

فابن قتيبة أراد أن يؤكد صحة اختيار مذهبه الذي يقوم علـــى أســـاس الجـــودة الفنية من خلال حجته السابقة، التي تتلخص في النتيجة النهائية التي تنص بأن ليس كل قديم مقبول، فإذا يجب علينا التسليم بأن ليس كل حديث مرفوض.

ثانيا: الحجج المؤسسة على بنية الواقع:

يعتمد هذا النوع من الحجج على " تفسير الوقائع والأحداث" من خلال" عرض الآراء المتعلقة بهذا الواقع، ويمكن أن تكون هـــذه الآراء وقـــائعfaits Des أو حقـــائق Des verities أو افتراضات Des presomptions "، وتتعدد هذه الحجج فتشمل:

- التتابع.
- الغائية.
- التعايش.

– التتابع:

يقوم هذا البناء على " تتابع الأحداث محيلين على رابط ســـببي"، ولـــه ثلاثـــة وجوه ، هي:

- حجاج يرمي إلى الربط بين حدثين متتابعين بواسطة رابط سببي، مثال: اجتهد فتنجح.
- حجاج يرمي إلى أن يستخلص من حدث ما وقع سبب أحداثه وأدى إليه، مثال: نجح لأنه اجتهد.
- حجاج يرمي إلى التكهن بما سينجر عن حدث ما من نتائج، مثال: هو يجتهد فسينجح.

ويظهر التتابع في مقدمة (أدب الكاتب) من خلال الحجج السببية التي اتخذها ابن قتيبة وسيلة لتحقيق نتائج خطابه، وهي الكشف عن حال العصر، فنجده يقول: "فالعلماء مغمورون، وبكرة الجهل مقموعون، حين خوى نجم الخير، وكسدت سوق البر، وصار العلم عارا على صاحبه، والفضل نقصا، وأموال الملوك وقفا على الشهوات، والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق، وآضت المروءات في زخارف النجد، وتشييد البنيان، ونبذت الصنائع وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر، وسقطت همم النفوس، وزهد في لسان الصدق وعقد الملكوت. "

ويكشف ابن قتيبة في هذا البناء الحجاجي عن تدهور الحياة العلمية وربطها بالحياة الاجتماعية، لذلك يقوم ابن قتيبة الاستدلال على ضياع العلم في عصره بحجج سببية متعددة تقود المتلقي إلى التسليم بصحة النتيجة، وتلك الحجج التي استند عليها ابن قتيبة يمكننا تصنيفها على عدة معايير، وهي:

- حجج تصف الحالة السياسية: "أموال الملوك وقفا على الشهوات، والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق".
- حجج تصف الجوانب الخُلقية: "وآضت المروءات في زخارف النجد، وتشييد البنيان، ونبذت الصنائع وجهل قدر المعروف، وماتت الخواطر، وسقطت همم النفوس، وزهد في لسان الصدق وعقد الملكوت".

وبذلك جمع ابن قتيبة بين الحجج الخلقية والسببية وجعلها سببا لتدهور الحياة العلمية، وأصبح العلم بذلك عارا على صاحبه، وهذه النتيجة الأساسية التي سعى لتأكيدها ابن قتيبة، ويتفرع منها عدد من النتائج وهي بأنه خوى نجم الخير، وكسد سوق البر، وضاعت بضائع أهل العلم. ولتوضيح تلك الأبنية تمثيلها على الشكل الآتي:

صورة غير موجودة

ومن خلال الرابط السببي تتجلى الصورة واضحة عن المجتمع تؤكد مدى تدني الحياة الاجتماعية والسياسية في عصره.

أما في مقدمة (عيون الأخبار) فيظهر النوع الثالث من الحجاجي التتابعي السببي الذي يقوم على التكهن بما سيحدث جراء حدث ما من نتائجه، فنجد ابن قتيبة يتوقع لقارئ كتابه عدة نتائج فيقول: " تصل بها كلامك إذا حاورت وبلاغتك إذا كتبت، وتستنجح بها حاجتك إذا سألت، وتتلطف في القول إن شفعت، وتخرج من اللوم بأحسن العذر إذا اعتذرت، فإنّ الكلام مصايد القلوب والسحر الحلال، وتستعمل آدابها في صحبة سلطانك وتسديد ولايته ورفق سياسته وتدبير حروبه، وتعمر بها مجلسك إذا جددت وأهزلت، وتوضح بأمثالها حججك وتبذّ باعتبارها خصمك، حتى يظهر الحقّ في أحسن صورة، وتبلغ الإرادة بأخف مؤونة، وتستولي على الأمد وأنت وادع، وتلحق الطّريدة ثانيا من عنانك، وتمشي رويدا وتكون أوّلا، هذا إذا كانت الغريزة مواتية والطبيعة قابلة والحسّ منقادا، فإن لم يكن كذلك ففي هذا الكتاب، لمن أراه عقله نقص نفسه فأحسن سياستها وستر بالأناة والرويّة عيبها ووضع من دواء هذا الكتاب على داء غريزته وسقاها بمائه وقدح فيها بضيائه، ما نعش منها العليل، وشحذ الكليل، وبعث الوسنان، وأيقظ الهاجع حتى يقارب بعون الله رتب المطبوعين".

ابن قتيبة من خلال هذا البناء الحجاجي الذي يقوم على النتيجة أولا، المترتبة عند الاخذ بالسبب وهو اقتناء الكتاب، ولتوضيح تلك الحجة من خلال الشكل التالي:

صورة غير موجودة

النتيجة النهائية: قيمة كتابه وفائدته لجميع مستوى الكتاب

- **البرغماتية:**

ويتصل كذلك بمبدأ التتابع شكلا أخر من الحجج وهي **الحجة البرغماتية** ويعرفها ليونال بلنجي بأنه " يمكن الحجاج البرغماتي من تقويم قرار أو حدث أو رأي باعتبار نتائجه الإيجابية والسلبية"وظهرت تلك الحجة عندما وضع ابن قتيبة حرز وحدود في عدم اختياره لمن عرف بغير الشعر، ثم بدأ بتوجيه فعل بعض العلماء فيقول: "فقد رأينا بعض من ألّف فى هذا الفنّ كتابا يذكر فى الشعراء من لا يعرف بالشعر ولم يقل منه إلّا الشّذّ اليسير. . . ولو قصدنا لذكر مثل هؤلاء فى الشعر لذكرنا أكثر الناس، لأنّه قلّ أحد له أدنى مسكة من أدب، وله أدنى حظّ من طبع، إلّا وقد قال من الشعر شيئا. ولا حتجنا أن نذكر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجلّة التابعين، وقوما كثيرا من حملة العلم، ومن الخلفاء والأشراف، ونجعلهم فى طبقات الشعراء"

عمد ابن قتيبة إلى تقويم اتجاه بعض العلماء في ضم كل من قال شعرا بين طبقات الشعراء، من خلال النتائج المترتبة لذلك وهي:

- ولو قصدنا لذكر مثل هؤلاء في الشعر لذكرنا أكثر الناس
- ولا حتجنا أن نذكر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجلّة التابعين، وقوما كثيرا من حملة العلم، ومن الخلفاء والأشراف، ونجعلهم في طبقات الشعراء

وتلك النتائج هي حجج قوية يعتمد عليها ابن قتيبة ليؤكد نتيجته الي يسعى إليها وهي صحة منهجه في اختيار الشعراء، فتقويمه طريقة العلماء من خلال النتائج المترتبة لأنه يريد أن يؤكد بأن الاستشهاد بكل قول شعري دون النظر إلى قائله سيتوجب على شمولية الاستشهاد فقدان الهوية الشعرية، وذلك لأن الذوق والحس الأدبي قد يكون لدى الجميع ولكن ليس كل من قال شعرا يصنف شاعرا، فعند فقدان الهوية

الشعرية سينضم للشعراء أقوال الصحابة والتابعين والعلماء والخلفاء، وبذلك ربط ابن قتيبة حجته بناء على تقويمه مذهب العلماء.

- **الغائية:**

تقوم هذه البنية على الوسيلة التي يستخدمها الكاتب، ويقول في ذلك أوليفي رويول: "تضطلع الغائية التي تستيعدها العلم بدور أساسي في الأحداث الإنسانية منها نستطيع أن نشتق حججا كثيرة تؤسس كلها على الفكرة القائلة بأن قيمة الشيء تتأصل بالغاية التي يكون لها وسيلة حججا لم تعد تعبيرا عن قولنا بسبب كذا وإنما من أجل كذا".

ومن هذه البنية الحجاجية ماجاء في (عيون الأخبار) فقد اتخذ من ذكر كلام الزهاد وسيلة لتحقيق غايته المتمثلة في منح كتابه البعد الديني، وذلك من خلال قوله: أودعته طرفا من محاسن كلام الزهاد في الدنيا وذكر فجائعها والزوال والانتقال، وما يتلاقون به إذا اجتمعوا، ويتكاتبون به إذا افتر قول في المواعظ والزهد والصبر والتقوى واليقين وأشباه ذلك؛ لعل الله يعطف به صادفا، ويأطر على التوبة متجانفا، ويردع ظالما، ويلين برقائقه قسوة القلوب".

لا يريد ابن قتيبة التبرير من تضمين كلام الزهاد ي كتابه وإنما يريد منح القارئ لكتابه المنفعة الدينية، وهذا من خلال استخدام الرابط الحجاجي (لعل) وأصبح ما بعدها هو الدليل القوي للمتلقي ويمكن الكشف عنها من خلال الشكل التالي:

ح٢: ذكر فجائع الدنيا والزوال والانتقال

ح١: ذكر محاسن كلام الزهاد في الدنيا

صورة غير موجودة

وتتصل بالغائية حجة أخرى وهي **حجة التبذير**، وتتمثل بناء على قول برلمان "بما أننا شرعنا في إنجاز هذا العمل، وضحينا في سبيله بما لو أعرضنا عن تمامه لكان مضيعة للمال والجهد؛ فإنه علينا أن نواصل إنجازه".

فهذه الحجة تستند على ضرورة اتمام ما قام به المرء وهذه الحجة اعتمد عليها ابن قتيبة في تبرير سبب استكماله مؤلفه(أدب الكاتب) بمؤلف آخر وهو (عيون الأخبار) إذ يقول: " ولما تقلّدت له القيام ببعض آلته دعتني الهمة إلى كفايته، وخشيت إن وكلته فيما بقي إلى نفسه وعوّلت له على اختياره أن تستمرّ مريرته على التهاون ويستوطئ مركبه من العجز، فيضرب صفحا عن الآخر كما ضرب صفحا عن الأوّل، أو يزاول ذلك بضعف من النية وكلال من الحدّ فيلحقه خور الطباع وسآمة الكلفة"، يؤكد ابن قتيبة بأن اتمامه التأليف خوفا من ضياع مجهوده في أدب الكاتب، فلايمكنه ان يترك مسألة الاختيار للكتاب لعدم ثقته بهم، فكانت الحجج التي استند عليها:

ح١: أن تستمر مريرته على التهاون

ح٢: يستوطئ مركبه العجز

ح٣: يضرب صفحا عن الآخر كما ضرب عن الأولى

ح٤: المزاولة بضعف النية وكلال من الحد.

فكانت النتيجة الأساسية هي سبب اتمامه الكتاب، وتفرع منها نتيجتين للمحافظة على الكتاب وهي: أن لا يلحق الكاتب خور الطباع، أو سامة الكلفة.

وبتلك البنية الحجاجية يمنح ابن قتيبة كتابه (أدب الكاتب) سمة الكمال والمرجع الأول، ويمنح في (عيون الأخبار) ثقة المتلقي وكسب قناعاته والتأثير فيه.

- حجة السلطة:

وتتمثل هذه الحجة "في الاحتجاج لفكرة أو رأي أو موقف اعتمادا عبى قيمة صاحبها" وتتعدد السلطة فقد تكون " الرأي العام، أو العلماء أو الفلاسفة أو الكنهوت أو. . . وقد تكون هذه السلطة غير شخصيةImpersonnelle مثل الفيزياء أو العقيدة أو الدين".

يمثل ابن قتيبة في مقدمة (أدب الكاتب) حجة السلطة من خلال مناقشته لطريقة تفكير بعض الكتاب، و مناقشة حالهم في الانصهار مع الثقافات الأجنبية الدخيلة، وقد أسهب ابن قتيبة في ذكر أحوالهم ومنها:

- "أرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب، وينظر في شيء من القضاء وحدِّ المنطق. . . "

- "قد رضي عوضاً من الله ومما عنده بأن يقال: فلان لطيف وفلان دقيق النظر يذهب إلى أن لُطف النظر قد أخرجه عن جملة النَّاس وبلغ به علم ما جهلوه"
- "إذا سمع الغُمْرُ والحدَثُ الغِرُّ قوله: الكون والفساد، وسَمْع الكيان، والأسماء المفردة، والكيفية والكمية. . . وظن أنَّ تحت هذه الألقاب كلَّ فائدة وكلَّ لطيفة، فإذا طالعها لم يَحْلَ منها بطائل"

فيناقش ابن قتيبة تفكير الكتاب لتأكيد السلطة التي يستند عليها فيقول: " لو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعدَّ نفسه من البُكْمِ، أو يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفَصْلَ الخطاب"

فجعل ابن قتيبة بنية خطابه تقوم على قاعدة النقص ة في أحوال الكتاب، وقاعدة الكمال المتمثلة في السلطة للعلوم الدينية واللغة العربية، فيجعل التقدم والفضل لهما، فيحمل بذلك المتلقي على التأسي بتلك السلطة، وللتوضيح يمكن تمثيل الحجة على الشكل التالي:

صورة غير موجودة

النتيجة: للعرب الحكمة وفصل الخطاب

ثالثا: الحجج المؤسسة لبنية الواقع:

تعد هذه البنية الحجاجية من أهم الأنواع وذلك لأنها " تؤسس هذا الواقع وتبنيه أو على الأقل تكمله وتظهر ما خفي من علاقات بين اشيائه أو تجلي مالم يتوقع من هذه العلاقات، ومالم ينتظر من صلات بين عناصره ومكوناته، فنتحدث عندها عن تقنيتين في الاستدلال المؤسس لبنية الواقع وهما: تأسس الواقع بواسطة الحالات الخاصة والاستدلال بواسطة التمثيل"

- **تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة:**

– الاستشهاد:

تعد "الحجج الجاهزة أو الشواهد هي من دعامات الحجج القوية، إذ يضعها المرسل في الموضع المناسب، وهنا تبتدئ أهلية وبراعته في توظيفها حسب مايتطلبه السياق" ويعمد الكاتب إلى الاستشهاد، لأن " من شأنه أن يقوي درجة التصديق بقاعدة

ما معلومة وذلك بتقديم حالات خاصة توضح القول ذا الطابع العام وتقوي حضور هذا القول في الذهن" وعد أرسطو الاستشهادات بمثابة الشواهد والقوانين في الخطابات القضائية، وفي الخطابة العربية هي " تضمين الآيات القرآنية والأحاديث وأبيات الشعر والأمثال والحكم، وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها وعن مصادقة الناس عليها وتواترها، وتدخل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصود للاستدلال عليها"، فيلعب الاستشهاد دورا هاما " يتمثل في كونه مصدر الحقيقة الذي ينم عن قول أو عن تجربة أو عن معرفة".

وحفلت مقدمات كتب ابن قتيبة بالحجاج بالاستشهاد، وتفاوتت وتنوعت بناء على خصائص كل مقدمة، فنجد أن مقدمة (أدب الكاتب) تنوعت مادة الاستشهادات من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأقوال خلفاء و علماء، وروايات، وأشعار، وكذلك ايضا في مقدمة (عيون الأخبار) ولكن يلحظ خلو الشاهد القرآنية، وأما مقدمة (الشعر والشعراء) يقتصر الاستشهاد بالروايات والأشعار. ولتوضيح الشاهد سيتم الاكتفاء بنموذجين.

ففي مقدمة (أدب الكاتب) عمد ابن قتيبة إلى عدد من الحجج لتأكيد النتيجة التي يسعى الى تقريرها لدى المتلقي، فيقول: " ونستحبُّ له أن يدع في كلامه التَّقعير والتَّقعيب، . . . فهذا وأشابهه كان يُستثقلُ والأدب غضٌّ والزمان زمان، وأهله يتحلَّوْنَ فيه بالفصاحة، ويتنافسون في العلم، ويرونه تِلْوَ المقادر في دَرَك ما يطلبون وبلوغ ما يؤمِّلُون، فكيف به اليوم مع انقلاب الحال، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن أَبْغَضَكُم إليَّ الثَّرْثَارونَ المُتَفَيْهِقُونَ المتشدّقون "؟ ؟ "

ضمن ابن قتيبة بنيته الحجاجية عدة حجج متفاوتة لتأكيد النتيجة التي تتلخص في التأكيد على البعد في التقعير بالكلام، فتظهر الحجة الأخيرة وهي الأعلى في السلم الحجاجي – حديث شريف– فيؤكد ذلك بأنه هو الدليل الأقوى، ويمكن تصنيفها على السلم بالشكل الاتي:

ن= البعد عن التقعير في الكلام

نجد أنه بدأ بالحجة الأولى التي توكد بأنه كان يستثقل التقعير عندما كان حال الأدب أفضل من حالهم، ثم لجأ إلى الحجة الثانية وجاءت كتدعيم للثانية فتكشف عن ضعف الأدب في عصره، وهنا يظهر التناقض وعدم الاتفاق حتى يصل إلى الحجة

الثالثة الأقوى وهي الاستشهاد بحجة جاهزة بحديث شريف ليجعل بذلك لتلك الحجة القوة وفصل الكلام، واقناع المتلقي بها لأنه منح تلك المسألة بعد ديني لكونه أمر مكروه عن الرسول ﷺ، فهذا التفاوت والتدرج بالحجج يخدم نتيجة واحدة مفادها بالبعد عن التقعير بالكلام.

ويلحظ على استشهادات ابن قتيبة بأنه لم يكتف بالشاهد المفرد، إنما عمد إلى الشواهد المجموعة، ومن ذلك ماساقه في مقدمة (عيون الأخبار) بقوله: " وإذا مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنّك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر خدّك وتعرض بوجهك فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم وإنما المأثم في شتم الأعراض وقول الزّور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تعزّى بعزاء الجاهلية فأعضّوه بهن أبيه ولا تكنوا». وقال أبو بكر الصدّيق، رضي الله عنه، لبديل بن ورقاء، – حين قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم إنّ هؤلاء لو قد مسّهم حزّ السلاح لأسلموك–: «إعضض ببظر اللّات، أنحن نسلمه! ». وقال عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه: «من يطل أير أبيه ينتطق به». وقال الشاعر في هذا المعنى بعينه:

فلو شاء ربّي كان أير أبيكم. . . طويلا كأير الحارث بن سدوس"

فعمد إلى توظيف الاستشهادات المتعددة ليدعم غاية خطابه الحجاجي، وذلك ليؤكد نتيجته المرتبطة بكتابه وهي التأكيد على سلامة كتابه من الخطأ ورفع الحرج عن كتابه وعن شخصيته فكانت حججه متعددة وهي:

ح ١: اسماء الأعضاء لاتؤثم

ح٢: الاستشهاد بحديث الرسول ﷺ

ح٣: الاستشهاد بقول لأبي بكر رضي الله عنه

ح٤: الاستشهاد بقول لعلي رضي الله عنه

ح٥: الاستشهاد بالشعر

ن= رفع الحرج عن كتابه

وبذلك يلحظ اتخاذ ابن قتيبة الاستشهاد كوسيلة حجاجية، فهو يتبع بكل فكرة يوردها عدد من الشواهد وذلك حتى يحقق مراميه الحجاجية، فالاستشهاد كان غنيا في مقدمتي (أدب الكاتب – الشعر والشعراء)، وذلك لأنه يسعى إلى تقويض امور، وتشييد

أمور أخرى، مما دفعه إلى الوفرة في ذكر الاستشهادات، لزيادة إقناع المتلقي، بينما قل في (عيون الأخبار) وذلك لأن مقدمته تسير وفق خطة محكمة لتوضيح منهجيته في التأليف.

- **النموذج:**

يعد النموذج نوعا من أنواع المثال، ويعرفه أوليفي روبول بأنه " المثال الذي يظهر بمظهر يستوجب التقليد "، استدعى ابن قتيبة النموذج في مقدمة (أدب الكاتب)وذلك عندما تناول مسألة مايستحب للكاتب ومايجب عليه مجانبته من " شنيع الكلام ورفث المزح" فعمد إلى النموذج لإقناع المتلقي بهذه المسألة فيقول: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم – ولنا فيه أُسوة حسنة – يمزح ولا يقول إلا حقاً، ومازَحَ عجوزاً فقال: " إن الجنة لا يدخلها عجوز ". وكان في عليٍّ عليه السلام دُعَابة، وكان ابن سِيرين يمزح ويضحك حتى يسيل لُعابه"

ويلحظ أن ابن قتيبة تدرج في ذكر الحجة بناء على أقوى نموذج لإقناع المتلقي وهي الاقتداء بالرسول ﷺ خلقيا، ثم دعم ذلك الخُلق بشاهد حديث نبوي، وبدأ بذلك لأنه أراد أن يمنح المتلقي شعور الاطمئنان حول هذه المسألة، ثم استمر في ذكر نموذجين وهما خلق علي بن أبي طالب وخلق ابن سيرين ، وهو بذلك برع في اختيار نماذجه، ولو أنه أكتفى بالرسول ﷺ لكفاه ولتحققت غاية خطابه، وذلك لأنه نموذج على حد قول برولمان يستوجب التقليد لأنه على" قدر كاف من الهيبة"، وعمد إلى ذلك حتى يؤكد إباحة المزاح في الشريعة الإسلامية، حتى يصل إلى بخطابه إلى مبتغاه ومراميه الحجاجية.

ولكنه عدد نماذجه حتى يثبت الفكرة في ذهن المتلقي ووحتى يضمن توجيه فكر المتلقي توجيها صحيحا، ويمكن تمثيلها على الشكل التالي:

صورة غير موجودة

ويلحظ بأن قوة البينة الحجاجية أرتكزت في بدايته، وهذا يتمثل في النموذج الأقوى وهو الرسولﷺ ثم دعم ذلك بالحجة الجاهزة وهو الاستشهاد بحديث نبوي شريف، هو بذلك تدرج من الأقوى إلى الأضعف لتأكيد نتيجته.

- **الاستدلال بواسطة التمثيل:**

تقوم هذه البنية عن طريق " تشكيل بنية واقعية تسمح بايجاد أو أثبات حقيقة عن طريق تشابه في العلاقات" وهذا الاستدلال يقوم على " احتجاج لأمر معين عن طريق علاقة الشبه التي تربطه بأمر آخر فيدخل بذلك في مجال التشبيه أو الاستعارة"وذلك ماعرف بمسمى القياس وقال عنه الجرجاني: "والتشبيه قياس والقياس فيما تعيه القلوب وتدركه العقول وتستفتي فيه الافهام والأذهان لا الأسماع والآذان"

فالقياس يقوم على مقدمتي صغرى وكبرى، والتشبيه والاستعارة " يمثلان ضربا من القياس فالتسليم بالمقدمتين الصغرى والكبرى يقودان المتلقي إلى التسليم بالنتائج"، وذلك يؤكد بأن "الاستعارة الحجاجية ليست مجرد زخرف في القول وتنميق له بل هي أداة أساسية في الحجاج".

وهذه البنية الحجاجية القائمة على التمثيل والاستعارة لانكاد نجدها في مقدمتي (أدب الكاتب والشعر والشعراء) وذلك لأنه انشغل في المقدمتين بالتأسيس والتأصيل فلم تظهر السمة الذاتية فيهما، خلاف مقدمة (عيون الأخبار)

ونجد ابن قتيبة في (عيون الأخبار) يؤكد قيمة كتابه فيقول: " ولم أر صوابا أن يكون كتابى هذا وقفا على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواص الناس دون عوامّهم ولا على ملوكهم دون سوقتهم، فوفّيت كلّ فريق منهم قسمه ووفّرت عليه سهمه. . . ولم أخله مع ذلك من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة وأخرى مضحكة. . . وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما، . . . وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين"

ويتضح بأن ابن قتيبة تدرج في حججه ليصل إلى حجته التمثيلية، فبدأ بالحجة الأولى بأن كتابه صالح لكل فئات المجتمع، واتساع قاعدة كتابه تمنح كتابه فرصة التداول بين الجميع، ثم لجأ إلى الحجة الثانية وهي تنوع مادة كتابه بين (دين ونوادرومزاح وفكاهة) وهذا يمنح كتابه فرصة الانتشار والقبول، ثم ختم حديثه بالحجة التمثيلية المركبة التي تؤكد حججه السابقة، ولكن من خلال معاني مجازية، وعند استعراض تلك المعاني الحقيقة والمجازية نجد التالي:

صورة غير موجودة

وكذلك يمكن تصنيفها على السلم الحجاجي حتى تتضح قوة حجته التمثيلية التي تقع في أعلى السلم، فهي بذلك الدليل القوي:

ن = عظمة وقيمة ماحواه الكتاب

- الخاتمة:

فقد انتهت هذه الدراسة بتقديم قراءة خطاب المقدمات التراثية من خلال موضوع: الخطاب الحجاجي في مقدمات ابن قتيبة (أدب الكاتب- الشعر والشعراء- عيون الأخبار) أنموذجاً، وذلك يكشف عن وعي ابن قتيبة بأهمية الحجاج في مقدماته، واتخذت الدراسة من المنهج الوصفي التحليلي أداة توصلت بها النتائج التالية:

- يمتاز الخطاب الحجاجي في مقدمات ابن قتيبة بالانسجام التام مع الغاية التأليفية.
- تباينت كتب ابن قتيبة الثلاثة في الأفكار والقيم المتضمنة والأهداف، لذلك تنوعت بنية الخطاب الحجاجي على حسب ما تقتضيه الفكرة والهدف منه، لذلك تتشكل البنى الحجاجية لمقدمات ابن قتيبة لتشمل الحجج الشبة منطقية، والحجج المؤسسة على بينة الواقع، وحججا تؤسس بنية الواقع.
- تنوع البنى الحجاجية في المقدمات ، دليلا على معرفة ابن قتيبه باختلاف مستويات الفهم لدى متلقيه ، مما يستوجب التنوع والتنقل من بنية لأخرى لتحقيق غايته.
- انحصرت وظيفة الحجاج في المقدمات بالوظيفة الأساسية للحجاج وهي استمالة المتلقي وإقناعي، مما نجده يركز على الجانب الإنفعالي للمتلقي، للتأثير فيه ،بغية الوصول إلى مرامية الحجاجية.
- غلبة الحجج المؤسسة على بنية الواقع، والحجج التي تؤسس بنية الواقع في مقدمات ابن قتيبة.
- خلو البنية الحجاجية القائمة على التمثيل والاستعارة لانكاد نجدها في مقدمتي (أدب الكاتب والشعر والشعراء) وذلك لأنه انشغل في المقدمتين بالتأسيس والتأصيل فلم تظهر السمة الذاتية فيهما، خلاف مقدمة (عيون الأخبار)

وفي الختام تكشف لنا الدراسة ثراء فكر ابن قتيبة ومدى انفتاح المقدمات على الدراسات الحديثة، مما مينح خطابه قوة في التأثير على المتلقي.

المصادر والمراجع:

- أرحيلة ، د. عباس (٢٠٠٣م) مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، ط ١،مراكش :المطبعة والوراقة الوطنية.
- عبدالحميد، د. جميل ،البلاغة والاتصال، ط د،(مصر: دار غريب، ٢٠٠٠م)
- عبدالرحمن،د. طه. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط١، (المغرب: المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٨م)
- د. سامية الدريدي .**الخطاب الحجاجي في الشعر العربي** .ط٢(الأردن: عالم الكتب الحديث، ٢٠١١م)
- سلوي، د.مصطفى (٢٠٠٣م) عتبات النص: المفهوم والموقعية والوظائف، ط د، ، المغرب: منشورات كلية الآداب ، رقم ٧١.
- الشهري. د. عبدالهادي ، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط١، (لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤م)
- ابن فارس، أحمد أبو الحسين، مقاييس اللغة ، تح: عبدالسلام هارون، ط د(مصر: دار الفكر ، ١٣٩٩م)
- فريق البحث في البلاغة والحجاج ، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربيةمن أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود(تونس_ كلية الآداب منوبة، ت د)
- ابن قتيبة الدينوري، أبومحمد عبدالله بن مسلم:
- (٢٠١٢م) أدب الكاتب، تحقيق: علي محمد زينو ،ط،١(لبنان–سوريا : مؤسسة الرسالة.
- (٢٠١٤م) عيون الأخبار،تحقيق: الداني آل زهوي، ط د،بيروت: المكتبة العصري.
- (ت د) أدب الكاتب،تحقيق : محمد الدلي ط د، (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ت د)
- (ت د)الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد شاكر، ط د ،القاهرة: دار المعارف.
- ابن منظور الأنصاري، محمد بن مكرم (٢٠٠٣م) لسان العرب، ط د، ،بيروت: دار صادر.